المقتطف

الجزء الخامس من المجلد السابع والتسعين

١ دسمبر سنة ١٩٤٠ — ٢ ذي القعدة سنة ١٣٥٩

لماذا نحارب ؟

بحث نفسي مقابل

في بواعث القتال والاعتداء في طبيعة البشر

ليس الغرض من هذا البحث تبيان البواعث التي حملت هذه الدولة أو تلك على خوض غمار هذه الحرب الطاحنة. ولكن الغرض منهُ الرجوع بالأسباب الاجتماعية والاقتصادية التي من وراء الحروب الى أصولها في طبائع الناس. وأغلب الرأي في ما يلي لفريق من علماء النفس المجرّبين في الولايات المتحدة الأميركية

يستدلُّ بمشاهدة القردة والأطفال وتجربة التجارب بهم أن هناك بضعة عوامل أساسية بسيطة تبعث على القتال واعتداء الأفراد بعضهم على بعض

وأحد هذه العوامل هو النزاع على امتلاك الأشياء المادية. كالنزاع على الطعام او الملابس او اللُعب او الإناث

ومما هو جديرٌ بالنظر في بحث هذا النزاع على المُلْك ان المتنازعين قد يمضون في النزاع الى أقصى درجات العنف فلا تسلم الاشياء التي يتنازعون في سبيلها من التلف أو الدمار. فالدمية تمزّق قطعاً قطعاً. والاثاث تقطع شلواً شلواً. حتى ليكاد الاعتداء نفسه يملك النفس والجسم بعد اشتداده فيعدو حتى حدود الأثرة المقبولة [illegible] إلى امتلاك شيء [illegible] الى تدميره

ثم لوحظ في الاطفال خاصة ان الشيء الذي يكون موضوع النزاع بغية امتلاكه قد يكون في بدء النزاع و فيه مرموقاً من طفلٍ واحدٍ لا غير. فاذا تجلت هذه الرغبة فيه تعدّته الى غيره فيبدأ النزاع على شيء لم يكن مرغوباً فيه من احد الفريقين المتنازعين. ولكن رغبة الفريق الآخر يقظت شعور المنافسة على امتلاكه فكان النزاع

ولاحظ احد الباحثين السيكولوجيين بأم عينه حوادث نزاع كثيرة كان الباعث عليها لعباً بدت من احد الاطفال فلما بدت رغبة آخر فيها حسنت في عينيه او عيني غيره وغدت سبب نزاع بين الفريقين. واذن فرغبة التملك قد تكون غير قائمة على مجرد التعقل ومعرفة قيمة الشيء الذي يراد امتلاكه

ومن بواعث الاعتداء عند القردة والاطفال الى السخط على اندماج غريب في جماعتهم. فالطالب الجديد في فصل من الفصول قلما ينجو من القطيعة وبعض السخرية في ايامه الاولى. والقرد الدخيل على جماعة قلما ينجو من وخز وعض، قد يفضيان به الى الموت احياناً

والغالب ان هذا السخط مردّه الى الغيرة وهي ترتدّ الى خوف المنافسة. ودليل ذلك في علم النفس التجريبي المقابل ان الاطفال لا يسخطون اذا دخل على جماعتهم كلب وانما يسخطون اذا دخل على جماعتهم طفل غريب. والقردة لا تستثار اذا دخل على جماعتها جرذ او ماعز ولكنها تسخط اذا دخل على جماعتها قرد من نوعها

واخيراً هناك سببٌ اساسيٌ بسيط يبعث الاطفال على القتال وهو الشعور بالخيبة او ما يواجهونه من عقبات تصدّ بعض نشاطهم. فقد يمنع الطفل من ركوب عجلة قصد النزه إما لاسباب طبيعية كالمرض او عدم ملاءمة الجو وإما لمعارضة من هم اكبر منه ولهم سلطان عليه. وقد يشتد شعور الطفل بالخيبة لعجزه عن القيام بالعمل الذي يتوق اليه إما لاعتلال صحته وإما لضعف ذكائه. ان طفلاً من هذا القبيل يغضب ويتنكد ثم ينفس غضبه وتنكده بالاعتداء على غيره

واذا بدأ القتال بين القردة فانه ينتشر انتشاراً سريعاً في الجماعة، وينجذب الى دردوره افراداً لم يكن لهم صلة او شأن بالاعتداء الاول، ولا مصلحة لهم في استمرار هذا القتال. فكأن القتال مرض معدٍ تنتشر عدواه بسرعة عظيمة

فما السرّ في ذلك ؟

ليس من السهل تحقيق السبب

لا حيلة لنا في تبيين فرق بين تصرف القردة والاطفال من ناحية، وتصرف الكبار من ناحية اخرى، في حالة الاعتداء والقتال، فقد لا نجد فرقاً يذكر. وهذا كل ما لا فرق منه فكفة الاعتداء في الميزان هي كفة الكبار. والتاريخ القديم والحديث يؤيد هذه النتيجة تأييداً [illegible] علية في الدم [illegible] فالحرب أصبح امراً [illegible] مرة اخرى في [illegible] والمصائب

التعذيب وأدواته الحديثة أشد وأدق وأوجع من أساليبه وأدواته في عصور الظلام . ثم ان طرق التعذيب المنكرة أصبحت من الوسائل المألوفة في السجون والمعتقلات . وليس بين الحيوانات حيوان يستطيع ان يباري الناس في عنف عدوانه وإيصاد كل باب للشفقة والرحمة دون عذاب المتألمين والمهم

وعندما ندقق في البحث نجد فرقين اثنين بين الاعتداء كما تمارسه الحيوانات والأقوام التي لاتزال على الفطرة ، والاعتداء كما يمارسه الكبار والجماعات المتحضرة في عصرنا. فالثاني يكون على العموم عمل الجماعة سواء أحزاباً سياسيًّا كانت الجماعة أم طبقة دينية أو اقتصادية أم دولة ذات سيادة . بينما الأول يكون فرديًّا على الغالب

والفرق الثاني أن قدرة الكبار على التخيل والتفكير توجههم الى تأييد نية الاعتداء تبتكر الأساليب وتتفنن وتوضع النظريات الفلسفية والتاريخية وتؤيد. فالقردة والأطفال عندما يقاتلون لا يعمدون القتال الى تسويغه أو تفسير البواعث عليه . ولكن الكبار منتظمين في جماعات — سواء أأحزاباً كانت أم دولاً — ينشئون فلسفات ويشيدون علالي من المثل العليا قبل الشروع في قتل بعضهم بعضاً . فجماعة تقاتل في سبيل المذهب البروتستانتي وأخرى لتحرير طبقة العمال أو لإملاء الثقافة النوردية على الناس ونشرها في العالم . ان الكبار يموتون في سبيل نظرياتهم

***

ومن أسباب الحرب ما يتجلى في بحث النزاع بين الطوائف البدائية التي لا تزال على الفطرة . في هذه الطوائف يتجلى ميل الى اسناد الحوادث — سواء أطبيعية كانت ولا مفر منها ، أم انسانية تقع بالاختيار — الى مشيئة شخص انساني أو الهي . فاذا عصفت عاصفة أو زلزل زلزال أو افترس نمر رجلاً ، فالحادث يسند اما الى سحر تمارسه قبيلة مجاورة وإما الى غضب الشياطين أو سخط الآلهة . وكذلك يسند حسن الحال الى شخص من هذا القبيل

هذه النزعة التخيلية في الانسان تفضي الى الحرب . فتسود في جميع الشعوب يميلون الى اسناد الشر الى شخص أو جماعة . وهذا مبدأ لا يستطيع أحد ممن يدرس السياسة ان يجهله أو يتجاهله . فالسياسي يحاول ان يصب جام شرٍّ ما على خصمه السياسي . وكذلك نرى حركات اجتماعية تتخذ من أصحاب البنوك شخصاً معنويًّا تصب عليه جام الغضب بعد أن تسند اليه الشر الذي يعانيه الناس . وأخرى تتخذ من « اليهود » أو « الشيوعيين » ذلك الشخص المعنوي . وبعد ذلك يوصف بالخبث والخطر وما شاكل ثم يجعل هدفاً للاعتداء مفرغاً في قوالب شتى

ولكن النزعة الثالثة [illegible] على [illegible] واحدة ، [illegible] الى اسناد الشر [illegible] شخص أو

جماعة ، هي الأسباب الرئيسية للنزاع بين الجماعات ، سواء أكانت أمماً أم طبقات أم دولاً

ان السواد الأكبر من الأطفال محروم الوسائل اللازمة لاشباع ميولهم . والادلة متواترة على ان هذا المنع او القمع يفضي الى انفعال غضب أساسه الخوف فالمقت ونتيجته الاعتداء . فالسخط والاعتداء اللذان يليان الخوف نطلق عليهما الاعتداء البسيط

والطريقة المألوفة في معالجة الاعتداء البسيط تفضي الى حرمان آخر . فيصفع الطفل او يؤنب فتكون نتيجة العقاب ان يقوم في نفس الطفل نزاع بين الميل الى الاعتداء والخوف من العقاب

وهذا النزاع في الطفل مصدر من أهم مصادر الاعتداء في البالغ . فالنزاع نفسه نزاع بين ميل أصيل — وهو السخط من المنع او القمع — وبين الخوف من العقاب او الخوف من فقد حب من يُحب . وكلاهما أصيل كذلك . فالوالد او الوالدة في نظر الطفل مصدر للرضى وللسخط في آن واحد . ولذلك يميل الفرد في كثير من الأحيان الى حسم النزاع بكبته اي اخفائه . ولكن مهما يتغير النزاع في النفس ويختفي باستتار فوقها استتار لا يزول مطلقاً ولا بدّ ان يظهر مفرغاً في قوالب شتى . فالطفل الذي لا يستطيع ان يصفع اباه لانه أكبر منه وأقوى ويخشى عقابه ، يصفع طفلاً مثله او اصغر منه لأنه لا يخشاه . فنزعة الاعتداء الخفية في نفس الطفل تحوّل الطفل الى « بلطجي » صغير

وعلى النمط نفسه نجد الثوار والفوضويين الذين يعملون على الحكومات المنظمة ، وكذلك الغلاة في الوطنية الذين يمقتون الشعوب الأجنبية ، ومتطرفي النظريات الاجتماعية الساخطين على أصحاب الثروة ، او خصومهم السياسيين ، يظهرون في كهولتهم آثار نزاع نشأ فيهم صغاراً عن ميل الى الاعتداء البسيط كبته صفع الوالد او تأنيبه ، فثار في النفس الى ان حانت له فرصة الظهور

***

في كثير من حالات العصبية التي تثيرنا او تفقدنا نعمد الى احد أسلوبين للتخلص من القلق والنزاع الداخلي الذي يساورنا . أما الأول فهو أسلوب الحرب ، وهو شائع الممارسة في الحياة السياسية . ومؤداه أننا ننقل خوفنا او بغضنا او حبنا من الشخص الأصيل الذي نخافه او نبغضه او نحبه الى شخص آخر . وقد يكون الشخص الآخر في الحرب أهلاً للبغض او غير أهل له . ولكن اذا حوّلنا خوفنا او بغضنا او حبنا من آخر اليه ، اصبح الشعور الذي يربطنا به عندئذ ملتهباً ، فالخوف شديد يكاد يكون ذعراً ، والبغض شديد يوشك ان يكون كرهاً ، والحب شديد يبلغ مرتبة الهيام

وقد لا يقتصر هذا التحويل على تحويل الشعور الذي يتملكنا من شخص الى شخص بل قد يكون تحويلاً من أشخاص الى هيئات او جماعات كالدولة أو الأحزاب السياسية فيها . وهذا التحويل يكاد يكون عامًا . ولذلك قلما تخلو الحياة السياسية من النزاعات السيفة

والتحويل يكون عادةً الى شخص أقل خطراً من الشخص المحوَّل عنه . فالطفل الذي يحوِّل غضبه من والده لأنه يخشاه ، يحوله الى طفل مثله أو أصغر منه لأنهُ لا يخشاه . والرجل أسهل عليه ان يمقت النظام الرأسمالي من أن يمقت زوجه ، وأسلم عاقبة له ان يندِّد بالشيوعيين من ان يندِّد بالشركة التي يعمل فيها . وبهذه الطريقة ، طريقة التحويل يقل الخوف والقلق ولكنهما لا يزولان ، وبذلك تزداد سعادة المرء زيادة متفاوتة

فاذا نقلنا هذا القول من ميدان حياة الفرد الى ميدان حياة الجماعة بيَّنا أصلاً من أصول الاعتداء الدولي . فالاعتداء في الكبار يكون على الغالب ناحية من نشاط الجماعة . وبعض الجماعات لهُ القدرة على ان يجذب اليه ولاء الاعضاء فيوجه سخطهم وحقدهم واقدامهم على القتل ، توجيهاً خاصًا بأسلوب التحويل هذا . فجماعة الوطنيين الاشتراكيين وجهت سخط اعضائها وحقدهم الى اليهود والشيوعيين . أما السخط على الأوَّل فلم ينقض وأما السخط على الشيوعيين فتقتضي الأحوال السياسية كتمانهُ وكونه الآن

ثم هناك أسلوب آخر لا بدَّ من تفهمه لفهم طبيعة الفرد والجماعة . وهذا الأسلوب مردُّه الى التخيل كذلك . ولكنه تخيل من نوع آخر . وبه نتخيل الناس متصفين بصفات نأبى ان نعترف بوجودها في طبيعتنا

فالنفس بحسب رأي علم النفس الحديث ، ولا سيما مدرسة فرويد وما تفرَّع عليها ، ثلاثة أجزاء ، الجزء الغامض المصور بالظلام وفيه الرغبات والغرائز الأصيلة ، والذات وهي التي نعيش بها في هذه الدنيا ، والذات العليا التي تعمل عمل الرقيب أو الضمير المحاسب

ونحن كثيراً ما نحسب الناس أشراراً يفعل بواعث مسيطرة على طبيعتهم من ذلك الجزء السفلي . ولكننا في الوقت نفسه نأبى أن نعترف أن هذه البواعث لها وجود في كياننا الخفي أو أنها تؤثر في ذاتنا . ومن ناحية أخرى نحسب أن ذاتهم العليا تدقق وتحاسب على وجهٍ لا تتبعه ذاتنا العليا في محاسبتنا

ومن الأمثلة التي تضرب على النوع الأول من التخيل أننا كثيراً ما نجد من هو حساس بنفسه الخفي يعتقد ان جميع الناس يحيكون لهُ المؤامرات ويدسون الدسائس . أو من هو خسيس شحيح في عقله الباطن ، ثم يقضي الحياة زاعماً ان جميع الناس أخساء أشحاء

ومن الواضح في هذه الأمثلة أن الفرد يزعم ان [illegible] يعاملونهُ كما هو [illegible] أن يعاملهم

أو أنهم يسيّرون ببواعث وقوى هي في الحقيقة البواعث والقوى التي تحركه وتسيره. فالشحيح الخسيس يسند إلى الغير باعثه الخفي إلى الخسة والاختلاس

ومعظم حوادث الاضطهاد السياسي من هذا النوع. وإن اختلف مظهرها. إلاّ أن وجود هذا الميل لا يفسر لماذا يستمر الاضطهاد عندما لا يكون المضطهِد يخشى خطراً أو أذى. ومع ذلك يستمر

وجميع نظم الحكم القائمة على مبدإ الزعامة والطغيان تتخذ هدفاً تركز من حوله الميل إلى الاضطهاد. وقد يكون الاضطهاد مطلوباً لأسباب موضوعية، كوجوب اتخاذ فرد أو جماعة مسنداً يُسند إليه أو إليها الإخفاق أو الخيبة، أو لتوسل بها هدم الخصوم والمنافسين. ولكن علاوة على هذا هناك في الاضطهاد عنصر من عناصر هذا النوع من التخيل، هناك إسناد إلى الغير ما نجهله أو نتجاهله من بواعثنا الخاصة الخفية

والأقليات المضطهدة هي الأشخاص المثوية التي تسند إليها شرور الطبقات السائدة. وفائدة هذا الأسلوب واضح. إنهُ يخفف قلق النفس الخفي، لأنهُ أسهل أن تحتقر الناس لخسة تسندها إليهم أو لسوء ظنهم وريبتهم بالناس من أن تمقت نفسك وتحتقرها لخسة أو ريبة فيك. فبذلك يتخلص المرء من عبء الشعور بالإثم

وقد تقوم ذات المرء العليا، أو رقيبهُ النفسي، أو ضميره، بتوجيه النقد إلى ما يعمل والحكم عليه حكماً قاسياً، ولكن هذا لا يرضيه لأنهُ يجعله عبئاً ثقيلاً فادحاً. فلكي يتخلص من هذا النقد، وذلك الحكم، يحوّل نقده وحكمهُ إلى غيره من الناس. وهذا يفضي بدوره إلى حالة شاذة إذ يبدأ المرء المطبوع على هذا الغرار يرمي بالأحكام الأدبية والقانونية — وكثير منها يكون متخيلاً لا وجود لهُ في الواقع — التي تفرضها الدولة عليه فينقلب موضوعيًّا

وإذن فالاعتداء البسيط في طبيعة البشر مردّهُ إلى غريزة الجنس، والنفور من الطارئ الغريب عن الجماعة، والخيبة أو الفشل. والفرق بين الصغار والفرد من ناحية والكبار من ناحية أخرى ليس فرق أصل ولكنهُ فرق أسلوب في معالجة الحالات المختلفة

إن انطفاء نفثي يكبت الاعتداء لا يزيلهُ ولكنهُ يدفعهُ إلى الغور في طوية النفس فيظهر مفرغاً في قالب آخر. وهذا التحول له أسلوبان: يوصف الأول أسلوب التحويل والثاني أسلوب الإسناد. وغرضهما تخفيف الحرج النفسي الناشئ في النفس عن نزاع بين الاعتداء والتدبير والنهي والزجر. وهذا يفضي إلى ظهور الاعتداء في أشكال تتجلى في اعتداء الكبار، ولا سيما اعتداء الجماعات، من النزاع الحزبي، والحروب الأهلية، وحروب الدين، والحروب الدولية بوجه عام.

في هذه الحالات يتخذ الاعتداء شكلاً اجتماعياً . ورغبة من الجماعة في تسويغ اعتدائها أمام العالم الخارجي وأمام أفراد الجماعة نفسها ، بغية حمل الجميع على قبول الاعتداء والتسليم به من الناحية الأدبية، يعمد أعضاء الجماعة أو فريق منهم الى انشاء المذاهب والنظريات، كمذهب التاريخ ونظريات السلالة والعنصر والدين وغيرها

أي أنهم يتخذون الدوافع الفطرية ، ويبنون حولها هيكلاً يشبه المنطق لكي تظهر الدوافع معقولة لها ما يسوغها . ومن غرائب الطبع البشري أنك تجد شيئاً من الصحة في كل نظرية او مذهب من هذه النظريات والمذاهب ولكن معظمها فاسد خاطئ ، لا يعدو كونه تسويغاً لما يأكل النفس من مفتر ، ودفاعاً عما تجري به الأيدي من عنف وقساوة

إن الأمم تحارب في سبيل التملك ، او في سبيل البغض الناشئ عن اسناد الضرر اللاحق بها الى أمة أخرى او طبقة أخرى من الناس ، او لشعورها بالخيبة والفشل وتصدّي الخلق لها لمنعها عن تحقيق ما تريد

والموافقة المتبادلة بين أفراد الأمة على عمل ما يحذف فعل الضمير او الرقيب من تقديرها ، ولذلك نرى الدول تحارب لنفس الأسباب التي يحارب الاطفال من أجلها

وقد يكون أبناء الدولة على جانب من الحلم ، ولكنهم يعانون مرتبة من الشعور بالخيبة ، والاحساس بشقاء النفس ، حتى ليصعب عليهم ان يتحملوا عبء هذا النزاع النفسي الداخلي في صدورهم . فأمم من هذا القبيل ، او أمم فيها طبقات متحكمة متصفة بهذه الصفات ، هي في الأصل من الاعتداء ، أمة معتدية

ذلك بأنها تكون قد بلغت درجة من النزاع النفسي لا قرار لها معها ولا اطمئنان، فتغدو الحرب ضرورة نفسية لها لا مفرّ منها . وفي هذه الحالة تشب الحرب لغير سبب معقول او عذر واضح . قد تتوسل الحكومة بحادثة تافهة ولكن السبب الحقيقي، ولكن الدافع الأصيل ، الى الحرب هو في داخل النفوس المعذبة ، نفوس الأمة المعتدية

هذه هي إذن أسباب الحرب الدولية مستخلصة من طبيعة البشر ، فالحرب تقع لأن القتال ميل أساسي في الناس ، ولأن القتال ضرب من السلوك يحفز اليه الأطفال والقردة وجماعات البشر والأمم، تيام أحوال معينة، منها الرغبة في الحيازة، او الخيبة عن تحقيق رغبة ، او الخوف من منافسة الأغراب ، او تحويل البغض الكامن في النفس من شخص او جماعة الى شخص آخر او جماعة ثانية . كل واحد من هذه الأسباب يحفز الى الاعتداء ، وليس في الوسع ، بحسب ما نعلم حتى الآن ان نقدم واحداً منها على الآخر من حيث تأثيره . ان ذلك رهن بحال الاجتماع